

حمّور زيادة
النوم عند قدميّ الجبل
مداد
Medad

النَّومُ عند قدَمَيْ الجبَل

كلُّ الناس كانت تعلم أنَّ مزمل النور سيموت يوم يُكمل عامَه العشرين؛ استناداً إلى نبوءةٍ لا يزال مزمل يسمعها منذ شبّ واشتد عوده.

فالنسوة اللائي يزرن أمّه كُنَّ يربتن على رأسه في حنو، ويهمسن:

- يا مسكين. تموت صبياً. الدنيا خربانة.

والصبية الذين يخرج معهم لرعي الغنم يتقافزون أمامه ويخرجون ألسنتهم له، يهتفون:

- ود الموت.. ود الموت.

والتلاميذ الذين يعودون من المدرسة، أعلى القرية، ظهراً يمرّون أمام بيته وينادون:

- الموت الموت يا مزمل.. بكره تموت يا مزمل!

أمّا الكبار الذين كانوا يجلسون أمام دكان عيسى فقيري، فكانوا يرمقونه حين يدخل لشراء حلوى، ويغمغمون:

- دنيا ما فيها عمار. الله يرحمه.

وكان شيخ المسجد إذا رآه يتوضأ في باحة الجامع العتيق، ويقول له:

- الله يصبر والديك يا مزمل. برّهما ما استطعت.

ويشير راكبو السيارات التي تمر قرب القرية إلى البيوت المتناثرة فيها ويقولون:

- هذه قرية مزمل الذي سيموت يوم يكمل عامه العشرين.

رفضت والدة مزمل سكينة النصري أن يلتحق ابنها بالمدرسة. قالت لزوجها وهي تحتوي رأس مزمل في حضنها:

- ولدي لا يفارقني ليضيع نهاره في المدارس. الولد عمره قصير. يضيع في زرع وحصد؟

وكذلك لم يكن والده النور حسين متحمساً لإلحاقه بالمدرسة؛ فلم يجادلها واكتفى بهز رأسه مُسلّماً.

كان مزمل يقضي نهاره في صحبة والدته في المطبخ، أو يلعب وحيداً عند المزيرة. حتى إذا دوى صوت جرس المدرسة من مكانها المرتفع يعلن انتهاء اليوم الدراسي يسرع مزمل ليستأذن والدته في الخروج، وكانت تنظر إليه كلَّ مرة وفي عينيها قلق، ثم تأذن له. وأحياناً يكون عندها زائرات فيشجعنها في حماسة:

- العمر واحد يا سكينة. دعيه يخرج لمنْ هم في مثل سنه.

أكثرُ ما كان يُقلق أمه هو أن العمر واحد، ومزمل وحيدها عمره قصير؛ إذ سيموت يومَ يُكمل عامَه العشرين.

يجري مزمل وجلبابه القصير يرفرف على ساقيه النحيلتين ليقذف نفسه إلى الشارع؛ فيتلقاه التلاميذ منادين:

- الموت الموت يا مزمل.. بكره تموت يا مزمل!

يخرج إليهم عيسى فقيري من دكانه المقابل ويصرخ بهم:

- يا ولد! عديم تربية. امشِ يا ولد.

فيضحك التلاميذ ويتشتتون في طريق القرية الواسع وهم يضحكون، ويصدرون أصواتاً كأنهم يقودون سيارات.

يجري مزمل خلفهم وفي عينيه دمع يغالبه؛ فقد تعلم ألا يبكي إذا عابثوه؛ لأن دموعه تزيدهم عبثاً به. يلحق بجماعة منهم عند الجامع العتيق، بعدما كفوا عن الركض وأخذوا يمشون متكاسلين تحت شمس الظهيرة الحارقة، مرتدين سراويل قصيرة زرقاء، وقمصاناً كان ينبغي أن تكون بيضاء لكن القذارة غطتها. يلاحظونه يقترب فينظرون إليه؛ وما إن يقف منهم على مسافة حذرة حتى يسألهم في تردد:

- ألعب معاكم؟

ربما يوافقون مرات، وربما يمدون ألسنتهم له مرات أخرى ويقولون له:

- ارجع لأمك!

وفي أحيان قليلة يغريهم بنيانه الضعيف فيهجمون عليه فجأة ليدفنوا رأسه في الرمال، ويحثون عليه منها، ويركبون على ظهره، ثم يعدون مبتعدين وضحكاتهم المنتصرة تصفعه.

نظر إليه والده، ذات مغرب، في مجلسه اليومي بحوش البيت وكان صامتاً. راقبه طويلاً وهو يشرب الشاي باللبن ويأكل البسكويت، ثم قال النور حسين ببطء:

- يا سكينة، الولد بحاجة إلى شيء يفعله غير البقاء في حضنك!

فزعت أم مزمل التي كانت تضع أمامه المزيد من البسكويت

من قول زوجها النور ثم التفتت إليه، وقالت:

- الولد عمره قصير في كتاب الله! تحرمني منه مرتين؟

- الولد بلا شغل يموت مرتين. العاطل مثل الميت يا سكينة. انظري إلى جسمه كيف نحل!

- عُوده مثل عُود أخوالي. لا يحملون اللحم إلا بعد الثلاثين.

هز النور رأسه رافضاً التبريرات قائلاً:

- الولد مثل عود القش. الولد بحاجة إلى شغل، إلى شيء يفتح نفسه للأكل ويملأ جسمه بالعضلات.

- مزمل لن يرعى الغنم مرة أخرى مع الأولاد يا حاج.

- الولد كبر على رعي الغنم. كم عمره؟ اثنا عشر أو ثلاثة عشر عاماً؟

تحاول سكينة أن تحسب على أصابعها وترفع بصرها إلى السماء مغمغمة:

- ولدتُه في سنة عرس أخي أحمد. الحساب مكتوب في ورقة داخل الدولاب.

يقول مزمل في خُفوت:

- أحد عشر عاماً.

- تبارك الله. الولد نبيهٌ يا سكينة. أنتِ لا تعرفين كم عمره مع أن قلبك جَزِعٌ من الخوف عليه وهو يعرف! يجب أن نعثر له على عمل.

تدرك سكينة ما تؤول إليه الأمور إذا صمَّم زوجها على أمر

ما. فكرت قليلاً، ثم قالت:

- يمكن أن يعمل في دكان عيسى فقيري.

ضحك النور، وأنزل قدميه عن السرير باحثاً عن حذائه، وهو يقول:

- تريدين له عملاً تحت عينيك. عسى الأمر خيرٌ إن شاء الله. سأخبر عيسى فقيري بالأمر في صلاة العشاء.

- إما أن يعمل في دكان عيسى أو يبقى في حضني.

.

تفهم عيسى فقيري الأمر وقال للنور:

- الولد ولدي مثلما هو ولدك.

وفي اليوم التالي بدأ مزمل العمل في الدكان، وصار التلاميذ العائدون من المدرسة، أعلى القرية، ظهراً يقفون أمام الدكان وينادون:

- الموت الموت يا مزمل.. بكره تموت يا مزمل!

وبات الكبار الجالسون أمام الدكان يرمقونه كلما انقطع حديثهم بضحكات صاخبة واستغفار يتبادلونه عقب كل حكاية يقولونها، ويغمغمون:

- دنيا ما فيها عمار. الله يرحمه.

وكانت النسوة اللائي يقصدن الدكان للشراء يربتن على رأسه في حنو، ويهمسن:

- يا مسكين. تموت صبياً. الدنيا خربانة.

فيزداد مزمل نُحُولاً، وتبرز في وجهه الجمجمي عيناه بحزن مكتوم كأنه أم موسى عائدة من اليم.

أما أمه فكانت تقف على باب البيت طوال النهار ترمي ببصرها داخل الدكان وتتحين نظرة إليه، وتقول في نفسها:

- ما زال نحوله على حاله. قلت للحاج النور إنه مثل أخوالي. نحيف لن يحمل اللحم قبل الثلاثين.

ثم تتذكر النبوءة التي تقول إن ابنها سيموت يوم يُكمل عامَه العشرين، فيرجف قلبها، وتتطاول أكثر لتراه.

كانت السنة التي وُلد فيها مزمل وتزوج فيها خاله أحمد سنة خير؛ إذ فاض النيل وامتلأت الجروف بالخضار. فاقترح شيخ المسجد عبد القادر على الناس شكر نعمة الله بعمل كرامة ضخمة، طالباً ذبح ثلاثة ثيران وجمل.

اعترض بعضهم على فداحة العدد.

- من يأكل كل هذا؟

لكن عبد القادر قال:

- الله يبعث أهل اللقمة.

وفي ليلة الكرامة ولدت سكينة مولودها الذي طلبته زماناً من أولياء الله. وكانت كلما رجعت من شيخ أو ضريح تنتظر علامة نجاح مسعاها بلا جدوى. لكنها رأت في المنام ليلة زارت ضريح الشيخ أبو عاقلة من يقول لها:

- سمِّ الولد الذي ستلدينه "مزمل"!

هبت من نومها مستبشرة، ونادت زوجها النائم على سرير قريب. أجابها شخيره. كررت النداء حتى استيقظ، فقالت له:

- جاءت البشارة!

سُرّ النور الذي بَدَا مشوشاً بين الحلم الذي كان يعيشه واليقظة المفاجئة بخبر مبتور، فكرر محاولاً الفهم:

- جاءت البشارة!

- أتاني مُنادٍ في المنام، وبشرني بمزمل.

هب النور مرتبكاً.. هتف:

- ولد؟

- ونسميه "مزمل"؟!

نزل عن سريره وقفز فوق سريرها حتى ناء بهما. رفع قميصه لتصل يده إلى سرواله وهو يقول:

- يا مسهل! يا مسهل!

وسهّل الله أمره في ليلة الكرامة.

وُلد مزمل بعد حمل خفيف كأنه الحلم، ونزل مسرعاً من بطن أمه بين وضع السكين على رقبة ثور وذبحه.

زغردت النساء فضجت بأصواتهن القرية، وسأل الرجال الذين كانوا ينتظرون اللحم والأرز بمجلسهم في باحة الجامع، عن سر الزغاريد، فجاءهم الجواب سريعاً: سكينة النصري، زوجة النور حسين أنجبت ولداً!

كان الحضور كثيفاً؛ فكما تيقن شيخ المسجد عبد القادر بعث الله أهل اللقمة. ووقف بالقرية في تلك الليلة موكبٌ لخليفة الشيخ أبوعاقلة في طريقه إلى المدينة، إذ كان يسافر في أربعين من أتباعه ومجاذيبه؛ فنزلوا بالجامع العتيق، وسمع بهم أهل القرى المحيطة فأقبلوا جماعات حتى ضاقت بهم باحة الجامع.

النور حسين جاء مهرولاً يحمل وليده وهو بعدُ قطعة لحم. وضعه بين يدي خليفة الشيخ أبو عاقلة وهتف:

- أحلف بالطلاق ألا يحنكه ويكبّر في أذنه غيرك يا مولانا. رزقنيه الله ببركة الشيخ أبوعاقلة، وأكرمني بحضورك مولدَه.

ابتسم الخليفة فأضاء وجهه، ورفع يده فانسحبت جلابيته الخضراء لتكشف ذراعاً بضة مشعرة، قال:

- سبحان الله يا الحبيب. كنا في سفرنا قاصدين المدينة. ربّك لحكمة يعلمها أو لا نعلمها ألهمنا المبيت في قريتكم خلافاً لسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم بسفر الليل.

تجاوب الجمع مع ذكر النبي، فكرروا في غمغمة موحدة:

- صلى الله عليه وسلم.

إلا مجذوباً وحيداً صاح بعلو صوته:

- عليه الصلاة والسلام. يا رسول الله أنا عاشق.

ثم طوّح رأسه للخلف فانتثرت ضفائره الخشنة القصيرة. ناداه الخليفة متبرماً من قطع حديثه:

- اِجلس يا الحبيب، بارك الله فيك. خلاص. خلاص.

جلس المجذوب متمهلاً وهو يهز رأسه بانتفاضات كالمصروع ويُغمغم بصوت بالكاد يُسمع:

- "سبحان الله واحد. سبحان الله اتنين. سبحان الله تلاتة. سبحان الله أربعة".

تناول الخليفة حبة تمر وهو يقول:

- السنة قالت "عليكم بالدلجة، فإن الأرض تطوى بالليل". هذه الأرض كلها . وأشار بكفه الممسكة بالتمرة . يطويها ربُّ العزة سبحانه وتعالى في الليل، أي تقصر المسافات، وتُقرّب البعيد. سبحان الله.

كرر الجمع التسبيح وأعينهم معلقة بالخليفة الذي قضم بأسنانه رأس التمرة، ومضغها بعناية، ثم أخرجها من فمه تسيل لعاباً. مشى عليها بإبهامه، وحشرها في فم المولود وألصقها بسقف حلقه. ثم مال على أذنه اليمنى وهمس بالأذان.

ولما فرغ أمسك المولود بكلتا كفيه ورفعه إلى النور بابتسامة مشرقة وقال:

- خذ ابنك يا الحبيب. أسأل الله أن يجعله قرة عين لك ولأمه.

صاح الجميع:

- آمين.

- وأن يرزقه من العمر....!

ضاعت بقية العبارة مع قفزة المجذوب فجأة وهو يصرخ:

- "سبحان الله عشرين".

وصاح الجمع بتلقائية:

- آمين.

ارتبك الناس، وخطف النور ابنه من يدي الخليفة فَزِعَاً. صاح أكثر من واحد:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- يا حرقة حشا النور!

وتمنى بعضهم:

- أيها خليفة، قل "لا يقع".

- سألتك بالله يا شيخ، قل "لا يقع".

لكن خليفة الشيخ أبو عاقلة قال لهم في وجوم:

- لله الأمر يا أحباب. أمر الله نافذ. والفأل من الله يا جماعة. إنها سنة. والعبد أمام أمر الله ضعيف.

فتصايح الناس:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- الخير في ما اختاره الله.

- المولود وديعة من الله يستردها متى شاء. تصبّر يا النور.

- في حواصل طير خضر إن شاء الله يا النور. شُد حيلك.

وغمغم المجذوب بصوت بالكاد يسمع:

- "سبحان الله سبعة وعشرين. سبحان الله ثمانية وعشرين"..

لم ينسَ الذين شهدوا الكرامة وأكلوا لحم الثيران الثلاثة والجمل تلك الليلة، وكذلك النور الذي عاد بوليده منكسراً ليضعه بين يدي والدته سكينة ويخبرها بما حدث، فتصيح وتنعى وليدها حتى إنها نسيت أن ترضعه، ومنذ ذلك الحين أصبح كل الناس يتوقعون موت مزمل النور يوم يُكمِلُ عامه العشرين.

لم يقدر مزمل على مواجهة هذه المعرفة في الدكان طويلاً؛ فبعد أقلَّ من شهرٍ انقطع عن العمل. ولما وجدته أمه يعود إلى مجلسه بجوار المزيرة لم تسأله عن السبب، بل ارتاح قلبها لذلك. لكنها أخبرت زوجها النور بمجرد عودته من العمل:

- مزمل لا يريد الذهاب للعمل في دكان فقيري مرة أخرى.

قَبِل النور برغبة مزمل على مضض خصوصاً بعدما لاحظ أن عمل الدكان لم يُحسّن صحة ابنه ولا أخرجه من صمته وحزنه الدائمين. لكن الأب ظل يفكر في أمر يشغل ابنه عن الجلوس ساعاتٍ مع نفسه لا يفعل فيها شيئاً سوى الصمت. فأتاه الحلُّ يومَ الجمعة..

خرج النور ومعه مزمل كعادتهما إلى الجامع العتيق للصلاة، وبينما كانا يتوضآن مرَّ بهما شيخ المسجد عبد القادر وهو يعبق بعطر زيتي نفّاذ. وقف أمامهما وألقى على النور السلام، ثم نظر إلى مزمل وقال:

- الله يصبر والديك يا مزمل. برهما ما استطعت.

أجابه النور وهو يغسل ساعده:

- بارك الله فيه. لا يقصر عن خدمتي أو خدمة أمه.
- نِعم الابن .. والله.

ثم قال قبل أن يفارقهما:

- بارك الله فيك يا مزمل، اِملأ الأباريق بعد أن تفرغ من الوضوء حتى تختصر الوقت على الذين يأتون إلى الصلاة متأخرين.

هز مزمل رأسه من دون كلمة. ولما قضى النور الوضوء ترك ابنه يملأ الأباريق وهرول ليلحق بالخطبة. وبينما كان شيخ المسجد عبد القادر يتكلم عن عقوبة تارك الصلاة كانت الفكرة تتنزل على النور. وفي ركعتي الجمعة قلبها في عقله حتى ارتاح لها مع التسليم.

ولما خرج المصلون من الجامع العتيق جذب النور الشيخ عبد القادر، بعدما مال عليه واختنق بعطره وقال له:

- يا شيخ! الكل يعرف أن مزمل لن يعيش طويلاً.

قال الشيخ:

- لله الأمر يا النور. كل الناس تعرف ذلك.
- سيموت - بعد عمر طويل - يوم يُكمِلُ عامه العشرين.
- كلنا شهدنا ما حدث يا النور.
- طيّب! الذي يموت في العشرين رجلٌ مكلف أم غلام مرفوع عنه القلم؟
- رجل مكلف.
- إذاً؛ يموت مزمل - بعد عمر طويل - وهو رجل بالغ.

- إن شاء الله.

- كما تعلم، لا يجيد مزمل الآن القراءة أو الكتابة، ولا يحفظ من القرآن غير سورتي الفاتحة والكوثر؛ فبدلاً من أن يبقى بلا عمل، يمكنه أن يخدم المسجد؛ فيملأ الأباريق، وكذلك يتعلم القرآن، ويصحب الناس في مكان لا يعابثه فيه الأطفال أولاد الحرام!

- يا النور، بيت الله ليس لعبة.

- يا شيخ، معاذ الله أن أكون قد احتقرتُ بيته، ولكن المسجد هو بيت الله والمسلمين، والولد على الفطرة يستطيع أن يخدم المسجد ويتعلم القرآن.

فكّر الشيخ عبد القادر وهلةً، ثم نظر إلى مزمل في موقفه بعيداً وحيداً مطرقاً يحرك أصابع قدمه في الرمل.

- لستُ ملزماً بطعامه.

قال النور بسرعة:

- أمه ستأتيه بالطعام كل يوم.

- على بركة الله. سيبدأ خدمة المسجد إذاً، اعتباراً من صلاة الظهر في الغد، وأنا سأعلمه القرآن.

- وصلاة الصبح يا شيخ عبد القادر؟

نظر إليه الشيخ بعتاب:

- المسجد في صلاة الصبح لا يحتاج إلى خدمة؛ إذ لا يحضر الصلاة إلا أنا وعمّك سليمان.

حَنَى النور رأسه في حياء، وقال معتذراً:

- المشاغل ألهتنا يا شيخ عبد القادر. ربنا رفع القلم عن النائم.

- النوم غفلة قلب يا النور.

لم يعبأ النور بالتأنيب؛ إذ ملأه أمل بأن ينسجم ابنه مزمل مع مهمة خدمة المسجد، وأن يجد من يتكفل به طوال النهار بدلاً من جلوسه قرب أمه في المطبخ أو عند المزيرة، كما أن المسجد يحفظه من عبث الأطفال، فلا يتضرر من سوء أخلاقهم مرة أخرى.

أما سكينة النصري، فأصبحت تشعُّ أملاً بعد تمنع وتخوّف، وصارت تهرع بالغداء كل يوم إلى الجامع العتيق وتقف على بابه منادية وهي تنكس رأسها توقيراً لبيت الله. فيأتيها الشيخ عبد القادر هاشاً ويتناول منها ما تحمل.

وتسأل سكينة الشيخ عبد القادر – كل يوم بلا ملل – عن ابنها مزمل. فيشير لها برأسه أن تنظر إليه. تتطاول وتنظر داخل الجامع فتراه متربعاً قرب العمود، يهتز أماماً وخلفاً والمصحف في حجره، فيطمئن قلبها وترجع مبتسمة.

يعود مزمل إلى البيت عصراً ويجلس عند المزيرة، ويعكف على مراجعة ما حفظ نهاراً من القرآن، أو التدرُّب على ما تعلمه من الكتابة واللغة.

وبدأت النسوة اللائي يزرن سكينة النصري والدة مزمل يربتن على رأسه في حنو، ويهمسن:

- اللهمّ اجعلْ مزمل شفيعاً لأمه. الدنيا خربانة.

وأخذ الكبار الذين يصلون في الجامع يرمقونه وهو يملأ الأباريق، ثم يغمغمون:

- حمامة مسجد. الله يرحمه.

ويقول راكبو السيارات التي تمر بالقرب من القرية وهم ينظرون إلى الجامع العتيق:

- هذا هو الجامع الذي يخدم فيه مزمل الذي سيموت يوم يكمل عامه العشرين.

أما شيخ المسجد عبد القادر فكان يقول له عندما يكمل حفظ ربع من المصحف:

- يقال يوم القيامة لقارئ القرآن "اقرأ وارتق". الله يصبر والديك على فراق ابنٍ مثلك.

وكان النور حسين الذي فرح بكف الصبية عن إزعاج مزمل بذكر الموت ومعايرته به، يرفع كفيه للسماء ويقول:

- رب لك الحمد.

وتقول زوجته سكينة:

- لوجه الله صبرنا.

وكان الحاج سليمان، العجوز الوحيد الذي يأتي لصلاة الصبح في الجامع، ينظر إلى مزمل ويبتسم.

عاد الحاج سليمان إلى القرية متقاعداً وأصبح بلا أنيس؛ فحاول أن يجالس رفاق صباه القدامى أمام دكان عيسى فقيري، لكنه فشل.

أكسبته سنوات عمله سائقاً في شركة الأسمدة بالعاصمة خبراتٍ جعلت أحاديث القرية سخيفة لديه. ما عاد يذكر علاقات القرابة المتشابكة في القرية التي تغرّب عنها أربعين سنة، وزارها في سبع وثلاثين إجازة.

أنجب الحاج سليمان من بنت عمه خمسة أولاد، ولا يهمه ما يحكون عن زيجات بعضهم، أو محاصيلهم التي نسي مواسمها، أو حتى نعي موتاهم الذين لا يذكر حياتهم.

وإن حدثهم هو عن مميزات السيارة الهليمان كابورليه، لم يميزوها عن اللوري الهوستن! ولم يعرفوا سيارة الأوستن موريس 1100 التي كان يفضلها المدير الإنجليزي، ويعُدُّها أفضل السيارات. أما فنادق الجراند هوتل، واكسلسيور التي دخلها مع موظفي الشركة فهي مجهولة لديهم كجهلهم بما وراء القمر.

اضطر الحاج سليمان بسبب عجزه عن التواصل مع الآخرين إلى البحث عما يقضي به وقته في انتظار الموت؛ فهداه الله إلى الصلاة، التي لم يكن مواظباً عليها قبلاً، وقراءة القرآن الذي كان يتعثر فيه كطفل.

قال ذات يوم لزوجته ـ بنت عمه ـ إن دين الله فيه حكمة؛ فأحدنا بعد ما يعمل عَمَل الدنيا كله، يفتح الله عليه بفضائل صلاة المسجد وقراءة القرآن.

كان الحاج سليمان يقضي وقته بعد الصلوات في المسجد فيقرأ المصحف الذي يكتشفه كأنه أُنزل للتو، ويعجب حين يمر بسورة يوسف وخبر امرأة العزيز، ويدهش حين يعرف أن القرآن فرض الصيام إلى الليل؛ ثم جاء مزمل فكسر عليه وحدته.

ساقت زوجة الحاج سليمان علاقات متشابكة، وقرابات معقدة، تجعل سليمان في منزلة الجد لمزمل، فقالت:

- الحسين أبو النور هو ابن عبد الرحمن حسين حاج مكي، وأمك – رحمها الله – أم أبوها بت نصر، ونصر أمه بتول أخت حاج مكي.

ينظر لها في عدم فهم، فتقول:

- سأشرحها لك بطريقة أبسط. جدك نصر، هو ابن أخت حاج مكي جد والد حسين والد النور.

- حسين من؟

تقول مغالبةً غيظها من عجزه عن فهم الحسبة البسيطة:

- جدك نصر هو عم عبدالرحمن جد النور، ابن عمة أبيه.

- والله إنني لأفهم اللغة الفرنسية أكثر مما تقولين.

ثم انصرف عنها مكتفياً بأنه يُعتبر – في حسابات القرية – جد الصبي الذي سيموت يوم يُكمِلُ عامه العشرين.

كان مزمل يجلس بعيداً متهيباً على الدوام، مستوحشاً الناس كعهده؛ لكن السنوات التي مرّت عليه وعلى الحاج سليمان في الجامع العتيق قاربت بينهما على مهل.

أكمل مزمل عامه الخامس عشر، وكرّت أيامه لتلتهم العام السادس عشر، فختم القرآن برواية حفص، وصعب عليه الانقطاع عن المسجد، وهمس للشيخ عبد القادر بأنه يرغب في القراءة كما يقرأ الفلّاتة.

استبشر الشيخ عبد القادر بطلب مزمل وفرح؛ فمنذ أكمل دراسته بالمعهد العلمي في العاصمة لم يسأله أحد عن القراءات، ولما جرؤ ذات مرة على قراءة الفاتحة "**الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**" صوّبه عيسى فقيري بصوت جهوري قائلاً:

- (مالك).

فتجاهله وأكمل حتى قرأ "**إهْدِنَا السِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**"، فقال عيسى فقيري بنفاد صبر مدققاً:

- الصراط.

وعبثاً حاول الشيخ عبد القادر أن يشرح للمصلين بعد الصلاة أنه لم يلحن ولم يخطئ. قال لهم:

- هذه قراءة قنبل عن ابن كثير المكي.

لكن الناس صاحوا به:

- لا قنبيل ولا زنبيل يا شيخ. إمّا أن تقرأ القرآن كما نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أو تعتزلنا.

- هل نترك قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم لنقرأ بكثير أيش وقليل أيش؟

- اتق الله يا شيخ.

ومنذ ذلك الحين هجر الشيخ عبد القادر قراءة القرآن بغير رواية حفص عن عاصم التي تألفها القرية، وواظب زماناً على القراءة ببقية القراءات إن كان وحده لا يسمعه أحد، ثم تطاول عليه الزمن فهجرها ولزم رواية حفص عن عاصم في سره وعلانيته.

وطار الشيخ فرحاً حين طلب منه مزمل أن يعلمه قراءة ورش التي يتلو بها المهاجرون النيجيريون من الفلّاتة، الذين يمرون بالقرية في طريقهم إلى حج بيت الله راجلين، ينزلون بالقرية في شهر جمادى الآخرة. يقولون عادة إنهم خرجوا من بلادهم في صفر من العام السابق، ومشوا على أقدامهم نحو ستة عشر شهراً، ويقطعون من هنا زهاء ستة أشهر أخرى مشياً حتى يدخلوا البلد الحرام.

في البداية ظن الناس أن القراءة التي يتلون بها هؤلاء القرآن إنما سببها الإرهاق وطول المشي الذي أفسد نطقهم لكتاب الله. ثم لما تتابع قدوم الفلّاتة عاماً بعد آخر، وكلهم يقرأ بالطريقة نفسها عرف أهل القرية أن هذه قراءة خاصة بهؤلاء القوم العجيبين، يحجون مشياً في نحو عامين، ويرونهم شديدي الاجتهاد في العبادة، ولهم قرآن يخصهم، وأنهم لا يؤمنون بكل شيوخ البلاد وأوليائها، ولا يصدقون سوى ولي واحد يسمونه سيدي أبو العباس أحمد التجاني.

تعلم مزمل في الدرس الأول أن هذه القراءة لورش، وليس للفلّاتة، ثم كرّت قراءة ورش على مزمل تعلم أخواتها، وكرّت

القراءات سعادة للشيخ عبد القادر باستذكار ما كاد ينسى، وطمأنينة لمزمل في الجامع الذي ارتاحت روحه إليه، وتقارباً بينه وبين قرينه الحاج سليمان.

قال النور حسين بفخر وهو يرقب تحسن صحة مزمل وابتسام عينيه:

- إذا عاش الولد فسيصبح فقيهاً كبيراً.

وتذكره زوجته سكينة:

- سيموت مزمل ولد حشاي يوم يُكمِلُ عامَه العشرين.

- لله الأمر من قبل ومن بعد.

حرص الحاج سليمان الذي استحق لقبه بحكم السن، وتشبيهاً بأندانه الذين ما بقي فيهم من لم يؤدِّ الفريضة على تجنب الحديث عن الموت أمام مزمل.

ولكنه وجد عند مزمل الجهل بالمدينة والحياة نفسه الذي وجده عند الكبار الجالسين أمام دكان عيسى فقيري، غير أنه اكتشف ولعاً بالمعرفة لدى مزمل لم يلحظه عندهم.

أما الصبي مزمل فكان في أعوامه الخمسة عشر كأنه كتاب لم تخط فيه الدنيا سطراً بتجربة ما.. اللهم إلا تجربتين قصيرتين، إحداهما رعي الغنم، والأخرى البيع في الدكان. أما ما سوى ذلك فالحياة عنده تنحصر بين مطبخ أمه، والمزيرة، والجامع العتيق.

قال له الحاج سليمان متعجباً:

- ألم تذهب شرق القرية إلى الصحراء؟

هز مزمل رأسه.

- ألم تذهب إلى حوش ود صالح المهجور الذي تسكنه الشياطين عند طرف القرية؟

هز مزمل رأسه.

- ألم تزرْ حي العبيد شمالاً حيث أجود الخمور البلدية، والعاهرات؟

هز مزمل رأسه.

- ولا حفلات الطنبور في مسرح المدرسة أعلى القرية؟

هز مزمل رأسه.

- ولا المقابر أسفل جبل الصحابة لترى الموتى العائدين؟

هز مزمل رأسه.

- يا لك من غلام مسكين!

هكذا، وبعزم تبشيري، قرر الحاج سليمان أن يعرّف الصبي، الذي سيموت بعد أقل من خمس سنوات يوم يُكمِل عامه العشرين، بكلّ أنواع المتع والموبقات التي لم يسمع عنها.

قال له:

- على الأقل.. سيكون لديك الخيار يا ابني، فتعرف ماذا تهجر، إذ كيف يعيش للطاعة من لم يعرف المعصية؟ وكيف يأتي إنسان إلى ربه وليس معه معصية أو كبيرة؟ هذا تحقير لرحمة الله وعفوه. لا يجوز!

وأخذ يحكي له عن المدينة وشوارعها وفنادقها، وعن مشروب الجنّ، والبيرة أبو جمل، ويحدثه عن بنات الجامعة والنساء وتحديداً

نساء الخواجات، وكان مزمل يستمع بعينين متسعتين من لهفة المعرفة.

وعندما سأله الحاج سليمان هل يعرف الحساب، أجابه بالنفي، فقال له.

- عيب كبير. الشيخ عبد القادر علمك القراءة والكتابة والقرآن، ولم يعلمك الحساب؟

هز رأسه.

- لا بأس. أنا أعلمك الحساب أيضاً. هل تعرف أن اللغة العربية من علوم الدين؛ فهي عمل آخرة. أما الحساب فهو علم دنيا؛ ولذلك سأعلمك أنا إياه مع ما أعلمك من الدنيا.

وما إن التقط الحاج سليمان علامات الزمن تمشي في وجه مزمل، حتى سأله بلا حرج:

- هل رأيت "بت إبليس"؟

فأجابه مزمل في حياءٍ بأنه احتلم فعلاً؛ وعندئذٍ ضحك الحاج سليمان وربت على ظهره.

لم يحاول مزمل تجربة أي شيء مما علمه إياه الحاج سليمان، ولا أعاده تذكره بينه وبين نفسه. بل كان فقط يكتفي بلذة سماع الحكايات من معلمه الذي تكشف له عن رجل خليع مهزار جاوز السبعين من عمره. وكذلك لم يفكر الحاج سليمان في دفع مزمل لتجربة ما علمه إياه، إذ كان يتلذذ فقط باستعادة ذكريات ماضية وتمريرها لمستمع ما.

واظب الحاج سليمان ومزمل كلاهما على قراءة القرآن والتعبد، وأراد مزمل التكفير عن آثام الأحلام الجنسية التي تنزل به، والاستزادة من حلاوة التعبد، فشرع في قيام الليل، وصيام يومي الاثنين والخميس، ثم ألزم نفسه صيامَ يومي الثلاثاء والجمعة معهما، قبل أن يضيف صيام يوم الأحد إليها بعد وقت قصير.

لفت اجتهاد مزمل في العبادة الأنظار إليه؛ حتى قال النور حسين لزوجته:

- يا سكينة، ولدك أصبح فلّاتياً.

وقال عيسى فقيري:

- أصبح الولد يتعبد كأن في عنقه دم قتيل.

وقال راكبو السيارات التي تمر بقرب القرية مشيرين إلى البيوت المتناثرة:

- هذه قرية مزمل، العابد المجتهد، الذي سيموت يوم يُكمِلُ عامه العشرين.

وما إن وصل خبر الشاب العابد إلى خليفة الشيخ أبو عاقلة: حتى ازدادت ابتسامته اتساعاً، وقال:

- هذا الولد حنّكته أنا بنفسي.

وقال أتباعه جماعة:

- حلاوة ريقك وهبته العبادة.

وفي الوقت الذي بلغ فيه مزمل التاسعة عشرة من عمره وصل الحاج سليمان إلى الثمانين فلم يعد قادراً على مواصلة العبادة،

وجلس على سرير بيته مكرهاً يشكو آلام المفاصل وتوغل الرطوبة في عظامه، ثم نزلت في عينيه غشاوة أذهبت بصره إلا من بصيص، وهو ما أجبر زوجات أولاده على مرافقته لخدمته.

لم يتخلَّ الحاج سليمان عن مزمل إذ كان يرسل في طلبه ليستعيد معه أحاديثهما التي لا يعلمها غيرهما: الحاج سليمان يحكي ويضحك، ومزمل يسمعه ويبتسم في تحرّج.

وعجز الحاج سليمان الذي كُف بصره تماماً في وقت لاحق عن رؤية وجه مزمل وهو يرجع يوماً وراء آخر إلى وجه أم موسى عائدة من اليم. مشى الحزن الكظيم فيه حتى اسودَّ لونه، وبات كل يوم يمرّ يأخذ من لحمه فيُنحفه.

ودأبت سكينة أم مزمل على إخراج الورقة المكتوب فيها حساب عمره من الدولاب؛ فتجتهد في إعادة الحساب، ويختلط عليها العد. تحسب مرة فتجد أن مزمل مات منذ سنتين وستة أشهر وثلاثة أيام؛ ثم تعيد الحساب فتجد أن بينه وبين الموت خمسة أعوام وشهرين وتسعة أيام.

وما إن يشغلها خلط الأعداد أكثر حتى تهجر مطبخها وتستقر إلى جوار المزيرة ممسكة الورقة في يدها، هائمة مع الحساب.

أما النور حسين والد مزمل، فكان يجلس أمام دكان عيسى فقيري، بقميص قصير يكشف ساقيه، ويقول للناس في تسليم:

- الروح وديعة من الله. وصاحب الوديعة أحق بها. لله الأمر من قبل ومن بعد.

وعندئذٍ غمعم الناس مواسين، فقال:

- الحمد لله. الحمد لله على كل شيء. أنا صابر ومحتسب.

ثم سأله الشيخ عبد القادر بحزن بيّن:

- كم تبقى له؟

- زوجتي هي التي تتولى مهمة حساب عمر مزمل؛ فأنا والله لا أعرف حساب عمر الناس. أنا رجل مزارع، لا أحسب إلا مواعيد سقاية الزرع وحصاده. والله ما أعرف كم عمري.

ولما سأله عيسى فقيري في اهتمام:

- أنت أكبر أم عبد الرحمن؟

استفهم النور:

- عبد الرحمن؟

- عبد الرحمن بن شاذلي موسى.

فقال النور مستنكراً:

- لا! عبد الرحمن أكبر مني بكثير.

فتدخل الشيخ عبد القادر قائلاً:

- يا رجل اتقِ الله. عبد الرحمن أكبر منك؟

هتف النور في حماسة:

- أي والله. كان عبد الرحمن في سنة ختاني يدور في حي العبيد يسكر وينام مع الخدم.

فقال عيسى فقيري مُشككاً:

- ربما خُتنت كبيراً!

- أبداً والله. كنتُ صغيراً جداً. أذكر أني يوم أمسك أبي بي يقودني إلى حكيم الصحة كنت ألعب عند حوش ود صالح مع الصبية.

سأله أحد الجالسين:

- هل كان الباب القديم موجوداً؟

- الباب؟

- أيوه. باب الخشب القديم.

صمت النور متذكراً، ثم قال:

- لا. لم يكن هناك باب.

هز عيسى فقيري رأسه في تسليم:

- إذاً، عبد الرحمن أكبر منك فعلاً. لقد سرق هو وأصحابه الباب وباعوا خشبه وسكروا بثمنه في حي العبيد.

قال النور في انتصار:

- أنا متأكد.

- لكن والله شكلك في مثل عمره.

- الشقاء والزراعة يا شيخ عبد القادر.

- حال الدنيا.

- نعم حال الدنيا.

- لا تترك أحداً على حال.

- دوام الحال من المحال.

- كان أبي دائماً يقول "الناس نيام؛ فإذا ماتوا انتبهوا".

- يا سلام. هل كان يقول هذا القول؟

- أي والله.. كان يردده دائماً.

- الله يرحمه. كان رجلاً حكيماً.

- وكان أيضاً صاحب نكتة.

- هل تصدق! أنا أتذكره.

- حقاً؟

- أي والله. كان يجلس أمام بيتكم ويجتمع حوله جدي وجماعة منهم ود صالح وحسين حاج مكي وإبراهيم أبو الجاز.

- صحيح. صحيح.

- ما شاء الله.. ذاكرتك قوية.

قال عيسى فقيري في خبث:

- قلة المسائل؛ لو كان يُكثر منها مثلكم لنسي ما أكله في الإفطار.

- المسائل تمام والحمد لله، ولكن الأشغال والهم لا يتركان للمرء عقلاً يفكر به.

تنحنح الشيخ عبد القادر ومال على الجالسين، ثم همس لعيسى فقيري:

- أنت يا عيسى بطول لسانك، سألتك بالله كم مرة تفعلها؟

ضحك عيسى فقيري وقال:

- كم مرة في الليلة؟

ضحكوا في استهجان، وصاح النور حسين وهو يبتسم ابتسامة واسعة:

- كم مرة في الليلة؟ أتحداك إن كنت تفعلها مرة في الشهر.

همّ عيسى فقيري بأن يجيبه لولا أنَّ أحد الجالسين همس في آذانهم:

- يا جماعة: الصوت مرتفع، ومزمل ولد النور يقف أمام منزله: ويمكن أن يسمع حديثكم!

التفت الجميع فوجدوا الشاب الذي سيموت يوم يُكمِلُ عامه العشرين واقفاً على عتبة باب منزلهم، ليس بينهم وبينه إلا الطريق الترابي الواسع، لكن بصره شارد لا ينظر إلى شيء.

وعندئذٍ سأل عيسى فقيري همساً:

- هل تظنون أنه قد سمعنا؟

يتحرّج الشيخ عبد القادر وهو يقول في أسف:

- هذا آخر الزمان والكلام بلا معنى. ماذا سيكون موقفنا إذا سمعنا أحد الصبية نقول مثل هذا الكلام؟!

قام النور حسين من مكانه، ورفع يده لمزمل. ناداه:

- ما لك تقف عندك؟ أذاهب لصلاة المغرب؟

لم يجبه مزمل: ولا يبدو أنه سمعه أصلاً. ثم نزل عتبات البيت ومشى شمالاً.

ناداه الشيخ عبد القادر:

- يا مزمل! صلاة المغرب أوشكت. أين تذهب؟

لكن الشاب التزم الصمت نفسه، فراحوا يرقبونه حتى اختفى مع انحراف الشارع يساراً، وسترته البيوت عنهم تماماً.

- شيء غريب.

- هذه ليست عادته.

- لم يردّ على الشيخ عبد القادر.

- لم يردّ على أبيه النور حتى.

نازع القلق أباه النور الذي قرر اللحاق به، فقال له أحد الحضور:

- أنا سآتي معك.

- انتظرني حتى أدخل البيت، وألبس جلابية فوق هذا القميص ونذهب معاً.

عبر النور الطريق الترابي الواسع وقفز فوق عتبات الباب ودخل مسرعاً. وما إن اجتاز فناء البيت حتى سمع صوت شهيق حاد ومتشنج. نظر إلى يمينه فرأى زوجته سكينة أسفل المزيرة تنشج ولا تقدر على أخذ أنفاسها. هُرع إليها في هلع، ثم أقعدها وجلس بجوارها يحتضنها ويسألها:

- ماذا بك يا سكينة؟ قولي باسم الله. استعيذي بالله من الشيطان. ماذا بك؟

أخذت تشهق بين ذراعيه وفي قبضتها ورقة الحساب ترفعها في وجهه فلا يرى شيئاً. قال لها:

- صلي على النبي يا سكينة. قولي لي ماذا في الورقة.

خرج صوتها متقطعاً مع شهيقها:

- مزمل. مزمل. مزمل.

- ماذا حدث لمزمل؟

- عشرين. عشرين.

- يا سكينة صلي على النبي. كل الناس تعرف أن مزمل سيموت يوم يُكمِلُ عامه العشرين.

تمتمت بشيء لم يسمعه. ضمها إليه أكثر، ثم سأل:

- ماذا تقولين؟

- غداً. غداً يا النور.

- غداً؟

كانت سكينة في مجلسها المفضل عند المزيرة، فدخل مزمل عليها قادماً من زيارة للحاج سليمان. مشى إليها في هدوء، وجلس بجوارها. لم تلتفت إليه إذ كانت في شرودها تحاول إجراء حسابات عمره. وكالعادة تختلط الأمور لديها فلا تعلم هل يموت ابنُها قريباً أم مات منذ زمن!

مد مزمل يده وتناول منها الورقة التي تركتها له بعد تردد. ثم مد يده الأخرى فأعطته القلم طواعية وهي تنظر في عينيه اللتين يسكنهما الحزن والهم.

وضع مزمل علامة على عام مولده، وأخرى على العام الحالي، فركزت سكينة بصرها على القلم بيد ابنها وهو يعالج

الأرقام: يشطب، يكتب، يجمع، قبل أن يتوقف.

انتظرت أن يكمل الحساب، لكنه لم يفعل. لم يكتب آخر رقم. رفعت بصرها إلى وجهه، فتنهد وقال لها:

- أمي! امنحيني العفو والرضا. سأكمل غداً عشرين سنة من عمري.

ترك مزمل أمه يشلها الفزع وخرج. لم يعرف أحد إلى أين ذهب. وانقلبت القرية رأساً على عقب. مشى الناس في ظلام الليل جماعات يحملون الفوانيس والكشافات يبحثون عن الشاب الذي سيموت غداً مع بلوغه العشرين عاماً.

فتشوا الشوارع كلها، وبحثوا عنه في النادي، وفي حوش ود صالح غير خائفين من الشياطين الساكنة به. مروا أمام البيوت ونادوا عليه. نزل بعضهم إلى ضفة النيل.. لكنهم لم يجدوه.

وعندما تسلقت الشمس قبة السماء صرخ النور حسين:

- يا ولدي.

وناحت سكينة النصري بين المواسيات في بيتها:

- يا حُرقة حشايَ!

وقال الشيخ عبد القادر بحزن:

- أتى أمر الله. الولد ميت الآن بلا جدال. سبحان من له الدوام.

وقال عيسى فقيري وهو يذرف الدموع:

- يا جماعة، ستر الميت دفنه. يجب أن نعثر على الجثمان.

وقال آخرون:

- إن كان غرق فالجثمان يحتاج إلى ثلاثة أيام ليظهر.

- أرسلوا الخبر إلى قرى مجرى النيل ليترقبوا الجثمان.

وحين بدأ المعزون يجتمعون عصراً في بيت النور حسين، كان مزمل يستيقظ في حي العبيد.

مشى مزمل عندما نزل من عتبات منزله، في طريق القرية الواسع حتى انحرف به يساراً، ثم مال معه يميناً مرة أخرى خلف زريبة عبد الرحمن شاذلي وتوجه شمالاً.

خرج من القرية ومشى في الخلاء ساعة، يشق غبشة المساء، حتى بلغ حي العبيد.

كانت المرة الأولى التي يدخل فيها مزمل الحي. رأى في الظلام أشباح البيوت الطينية الفقيرة، تبدو من نوافذها أضواء الفوانيس، وتخرج منها همسات حميمية، وضحكات سُكارى: صعاليك من قرى المنطقة، سائقو لواري، صيادون يهجرون مراكبهم على الشط ويصعدون بحثاً عن المتعة، سماسرة بلح محدثون، كلهم يقضون أيامهم في بيوت حي العبيد. لا يغادرون إلا بعد إفلاسهم. الظلام ينزل على الدنيا فيطليها سواداً.

مشى مزمل بين البيوت التي يتصاعد منها الضجيج حتى عثر على بيت يلفُّه السكون، بابه مفتوح لا سترَ قماشٍ عليه كسائر البيوت، وأضواءُ الفوانيس تتدلى من شبابيكه فتفترش الرمل.

وقف أمام الباب مرتبكاً. أتت به الرغبات المتحدية. لكنه لا يعلم ما يجب أن يفعله. فقط لا يريد أن يلتقي بناس من أهل القرية في ليلته هذه. قرر ألا ينتظر الموت على فروة الصلاة.

"كيف يعيش للطاعة من لم يعرف المعصية؟ وكيف يأتي إنسان إلى ربه وليس معه معصية أو كبيرة؟ هذا تحقير لرحمة الله وعفوه. لا يجوز!".

قرَّر أن يجرب المعصية هذه الليلة؛ فيعرف ما ترك، ويقدم على ربه غداً طاهر الذيل إلا بقعة، حاملاً صلاته، وصيامه، وقرآنه، وبر والديه، ورضا أمه، وليلة في حي العبيد.

تنحنح أمام الباب، ثم نادى بصوت خافت:

- السلام عليكم ورحمة الله.

لم يجبه أحد. تقدم قليلاً وكرر بصوت أعلى:

- السلام عليكم.

سمع الضحكة الخشنة.

- السلام يا زول.. السلام. هل أنتَ داخل المحكمة؟ أُدْخل.

زادت السخرية توتره فهمَّ بالرجوع، لكن فراغ الباب امتلأ بشبح ضخم، وشم رائحة الصندل تفوح في الدنيا.

- أهلاً بالسلام. ما قالها لنا أحد منذ خلق الله حي العبيد.

كانت المرأة تحجب الضوء القادم من خلفها؛ فلم يميزها، ولا رأت وجهه. مدت يدها فجرته من يده ودخلت به حجرة طينية.

ولما غشيه الضوءُ أغمض عينيه، وسمعها تقول متعجبة:

- أنت صغير السن.

فتح عينيه وشد قامته وقال بحدة:

- لست صغيراً. أنا كبير بما يكفي.

نظرت المرأة إليه ملياً وبادلها هو النظرات. كانت ضخمة كأنها بقرة العمدة، لونها كالقهوة الرائقة، جلدها يلمع بدخان الطلح، أنفها مفلطح كخف جمل، شفتاها كحجر رحايا، ثدياها وردفاها أكبر من مبنى ضخم!

لم يرَ فيها مزمل شيئاً جميلاً، ولا شابهت تلك الخيالات المشوشة الملامح التي كانت تزوره في منامه. أما هي فلمعت عيناها الضيقتان وهي تقول:

- أنا أعرفك. أنت الولد الذي سيموت يوم يُكمِلُ عامه العشرين.

فقال لها:

- أنا لم أمت بعد، وجئت أريد ما يريده الرجال.

أطلقت ضحكتها الخشنة كشعرها القصير.

- يا حبيبي! أنت لا تطيق ما يطيقه الرجال.

- لست أقل من أي رجل.

نظرت إلى تصميمه باهتمام، ثم قالت:

- أنا الليلة بلا زبائن. يمكنني أن أهتم بك. الرجولة يا حبيبي

تُعلَّم. سأمشي بك طريق الرجال من أوله خطوة خطوة. وربما بعد تكرار زيارة كهذه لأشهرٍ تطيق ما يطيقه الرجال.

- لا وقت لدي. ولا أحتاج لتعلم شيء. أنا أعرف كل شيء.

- يا حبيبي! لا تحمّل نفسك فوق طاقتها.

قال في تصميم:

- أريد ما يريده الرجال.

هزَّت كتفيها العاليتين، وقالت:

- كما تشاء. ستدفع ثمن حلّة اللحم، و"جركن" خمر أولاً، ثم بعد ذلك ننظر ما يتبقى منك.

قال في تهور:

- أريدك أنت أيضاً.

ضحكت في مرح:

- اصبر لنرى ما يبقى منك بعد الخمر.

- أريدك قبل الخمر.

قالت متعجبة:

- أنت عجول حقاً أيها الشاب. حسناً. فثمن اللحم، والخمر، وأنا مقدماً.

أدخل يده في جيب جلبابه وأخرج لفة من قماش مزركش، فيها نقود صيانة منبر الجامع العتيق التي يحتفظ بها بصفته خادم المسجد. فتح اللفافة ونظر إلى النقود مفكراً. لم يعرف كم ينبغي

أن يدفع. تردد وهلةً ثم حسم تردده. أعاد لفَّ القماش على النقود ومدها إلى المرأة.

فزعت من فعله. صاحت:

- أنت مجنون؟

صَمَتَ، فنظرَتْ إليه ورأت عينيه تلمعان بالتصميم. تناولت النقود وقالت محذرة:

- ألنْ تصحو صباحاً فتبكي مثل الأطفال وتقول أريد نقودي؟!

- لن أفعل.

أشارت إلى فراش قذر على الأرض.

- اجلس هنا إلى أن آتيك.

هُرعت إلى باب البيت فأسدلت عليه سترَ قماش علامة على امتلاء البيت، ثم عادت مسرعة فأحضرت حلّة الطعام وأشعلت تحتها الفحم على بعد أمتار من الفراش الذي يجلس عليه مزمل. وهرولت في الفناء إلى حجرة بعيدة وهي تقول له:

- دقيقة. سأعود لك حالاً.

رجعت تحمل "جركن" أبيض امتلأ بالخمر البلدي، وضعته في ركن الحجرة، ثم مسحت كفيها بفستانها وقالت:

- الآن لا ينقصنا شيء.

ثم تنبهت فسألته:

- ما اسمك؟

- مزمل.

ارتسمتْ على وجهها فجأة . كأنما تلبسها جن . ابتسامة غنجة، ومشت نحوه وهي ترتج بشحمها يمنة ويسرة. رفعت ساعدها الضخم وشوحت به وهي تغني:

- يا يمه كان شفتي.. تغسلي وتكوي.. عقلي انسلب جيبي.. الزول المشلّخ تي.

ارتمت بجواره على الفراش كجبل ينقض وهي تتنهد تنهيدة حارةً طويلة. تمطت على الفراش وقالت بحرقة:

- "تعبانة يا انت".

لم يتحركْ. لم يعرف ما يجب عليه فعله، فمدت ذراعها ولفتها حوله. برد جسمه من ملمسها، لكن رائحة الطلح غزت مسامه فانتعشت ذكورته.

جرته ناحيتها وقالت بدلال كالفحيح:

- أمتعب أنت؟ متعب؟ تريدني أن أفعل كل شيء؟

لم يعرف مزمل كيف اجتاز التجربة. طاش عقله، وفقد وعيه وقدرته على تمييز ما يحدث. ما أحس إلا بالنشوة العارمة وهي تدله كيف يلجها.

مشى فيه الدفء الحميم من أحشاء المرأة حتى رأسه. ارتعش ظهره. تشنجت رجلاه وهو يرهز فوقها وهي تصيح:

- وي وي وي وي.

لم يحسب كم مرة فعلها. اختلط عرقها بعرقه، وملأت الدلكة

جلده. تسلخت ركبتاه إذ ما فطن أنه يحركهما على الأرض خارج الفراش ويشحط بقدميه في التراب. انتفخ وجه المرأة وبدت شفتاها كالقربة المدبوغة. تبعثرت شعراتها الخشنات كشجر الشوك. ولما ارتمى بظهره على الأرض كان صدره يعلو ويهبط مثل الذي سبح من العاصمة حتى القرية.

لملمت المرأة نفسها وجلست. لهثت. قالت ووجهها يتلوى:

- الله ينتقم منك. ده موت أحمر.

منحهما الصمت وقتاً ليشردا في ذكريات اللحظات الماضية. لا صوت إلا نهيج صدر مزمل وفوران اللحم في الحلّة.

قالت له المرأة:

- هل تأكل الآن؟

حرَّك رأسه في نشوة ولم يجب. كررت السؤال. فقفز فجأة وصاح:

- عووووك.

تقافز في الغرفة في سعادة وهو يلوّح بيد ويمسك بالأخرى سرواله كي لا يسقط، فضحكت المرأة، ثم هرول إلى "جركن" الخمر ورفعه عالياً فسقط عنه سرواله. صاح:

- لا وقت للأكل.

- يا مجنون، الخمر سيشقّك.

لم يهتم لتحذيرها. شرب قائماً حتى دارت الغرفة. ضحك. جلس، وشرب جالساً حتى دار حي العبيد. قهقه. دفع "الجركن"

فانكفأ وتدفق منه الخمر. نام على وجهه وشرب من الأرض حتى دارت الدنيا بما فيها. رطن بشيء ما فهمته المرأة ثم غاب عن الوعي، بينما كان صوت أذان الفجر يتسلل خافتاً قادماً من الجامع العتيق.

وحين بدأ المعزون يجتمعون عصراً في بيت الشيخ حسين، استيقظ مزمل مشوشاً.

بدا رأس مزمل ثقيلاً كأنما ينوء بقبة الشيخ أبو عاقلة. معدته تأكلها النار. حرك أطرافه فوجدها كلها هناك. نظر متعجباً إلى الحجرة المغسولة بنور الشمس. موقد به رماد. "جركن" ملقيّ على الأرض قرب ركن الغرفة. بقعة من الطين كأن هناك من صب الماء على تراب الأرض. أما هو فكان يرقد على فراش قذر عند الحائط.

فتّش عن ذكرياته، فأتته متمهلة لكنها مرتبكة:

حي العبيد. المرأة. الشيخ عبد القادر. "جركن" الخمر. أمه تمسك ورقة الحساب. عيسى فقيري. التلاميذ الذين يعودون من المدرسة أعلى القرية ظهراً، ويمرّون أمام بيته وينادون:

- الموت الموت يا مزمل.. بكرة تموت يا مزمل!

نقود المسجد في قطعة قماش مزركش. الحاج سليمان. النسوة اللائي يزرن أمه يربتن على رأسه في حنو، ويهمسن:

- يا مسكين. تموت صبياً. الدنيا خربانة.

قراءة ورش. الموت الذي كان موعده اليوم.

هبَّ فزِعاً يصيح:

- أنا حي.

جاءت المرأة على صيحته. ابتسمت له. وبدت في النور أكثر بشاعة مما رآها في ضوء الفانوس.

- صباح الخير يا الفحل.

أجابها في ذهول:

- أنا حي!

- الحي مثلك وإلا فلا.

نظر حوله: الدنيا التي كان آخرها فجر اليوم. الدنيا الجديدة التي خُلقت من عدم فجر اليوم. هل مات وبُعث في حي العبيد؟ أترى هل أسقطته معصيته من حساب الموت؟ هل كان موته كرامة له؟ أم تراه أخطأ الحساب؟

انكفأ على الأرض. خط بإصبعه تاريخ السنة على التراب. كتب أسفله تاريخ ميلاده. ثم حسب على أصابعه أيام الشهر حتى تيقن أنه في صبيحة ليلة ميلاده. الحساب صحيح. فما الخطأ؟ لن يموت يوم يُكمِلُ عامه العشرين؟

تراجع بظهره إلى الحائط. ثنى ركبتيه إلى صدره واحتبى. أراح ذقنه على ركبتيه وشرد.

قالت المرأة له:

- لولا ما فعلته أمس لما تركتك تنام عندي حتى هذا الوقت.

تعرف؟! الزبون الذي ينتهي يجب أن يذهب فوراً ولو كان خليفة الشيخ أبو عاقلة. النظام نظام. الذي يريد أن يبقى عليه أن يدفع أجرة أسبوع. لكن أنت شيء آخر.

لم يجبها، فمشت نحوه وجلست بجواره. مسحت بيدها على شعره وقالت:

- هل تريد أن تأكل؟ اللحم الذي دفعت ثمنه موجود.

كأنه لا يجلس هنا.

- إذا أردتَ أن تأتي في أي وقت فسأكون سعيدة. أنت لست مثل بقية الرجال. هم يأتون طلباً للذي تعرف، ويسكرون ويفتعلون المشاجرات، ويسبوننا. لا أحد منهم يحترمنا، لكن أنت تبدو مختلفاً.

سجعت قمرية في حوش البيت.

- هل أنت نادم على ما فعلنا أمس؟

اكتسب صوتها حنيناً.

- يا مزمل! الدنيا سيئة. ربك لن يُغضبه إن أخذنا منها ساعة فرح وفرفشة لأنفسنا. ماذا تساوي الدنيا بلا ساعة انبساط؟ الدنيا في النهاية آخرها كومة تراب. كل شيء زائل وكل حي للموت. إذا لم نفرح فكيف نقول إننا عشنا.

هب واقفاً. نظر إليها تائهاً، ثم قال بصوت متحشرج:

- أراكِ بخير.

قالت بشيء من خيبة أمل:

- هل ستذهب؟

أجاب في حزن:

- لا بد أن أذهب. لا أستطيع أن أبقى. لكنْ شكراً لك على كل شيء.

- باستطاعتك البقاء إذا أردت.

- ليس باستطاعتي أن أريد إلا الذهاب.

أولاها ظهره وخرج.

مشى بطيئاً مغادراً الغرفة، فالبيت، فحي العبيد.

سار متعثراً في الرمال ناحية جبل الصحابة بعيداً جهة الغرب. الشمس تهرب من أمامه فترمي ظله خلفه.. يشيعه ببطء إلى مقصده. أوصاله مفككة من الجهد. جوفه يحترق بجمرات الخمر، وينهشه الجوع إذ لم يَذُقْ طعاماً منذ أمس.

وما إن وصل إلى جبل الصحابة حتى وجد تحته ما يقصد: المقابر التي سمع عنها كثيراً وما زارها. وصفها له الحاج سليمان غير مرة. وشاهد مواكب التشييع تخرج من القرية تحمل بنيها إليها فلا تعود بهم. هنا عند قدمي الجبل ينام الذين ماتوا.

تخطى القبور بحذر حتى وقف في بقعة متاحة في وسط المكان، ثم نزل إلى الأرض بركبتيه وأنشب في الأرض أظفاره، وأخذ يحفر بيديه العاريتين قبره.

وعلى مدى سنوات كثيرة آتية ستمر السيارات قرب جبل الصحابة ويشير راكبوها إلى المقابر المتناثرة ويقولون:

- هنا ينام مزمل الذي مات يوم أكمل عامَه العشرين!

***